

تسمرنا من الخوف عندما رأينا جثتين... الرجل وطفله الصغير... ولقد دهشنا جميعاً، عندما رفع مغير يديه إلى السماء وراح يدعو: يا رب.. أمثني مثل هذه الموتة... أمثني في الوطن.

انتهت الدورية بعد أشكال من العناء وعاد مغير إلى القدس في دورية أخرى، لكنه استشهد في ذلك المكان الذي دعا فيه، ربما تكون تلك مصادفة... لكنها كثيرة تلك المصادفات التي تشبه المعجزات.

تلك الأيام لا تغادر الذاكرة.

ومن هو الفلسطيني الذي لا يحمل في قلبه أثراً عميقاً من جراح النكبة، وأولئك الفدائيون الذين اندفعوا في حالة تفوق الوصف في الكرامة، وجنوب الأردن والجولان والعرقوب... ورسما للحدود خارطة جديدة بدمائهم، وعبروا المستحيل بخطواتهم العارية وصنعوا من اللاشيء شيئاً؛ هؤلاء هم أبناء النكبة وورقة الشتات وجيل المعاناة القسوى. هؤلاء هم الذين خرجوا من عام الأمطار من قطاع غزة، تلك الأمطار التي جرفت مخيماتهم وألقت بها في البحر، حتى قال الشاعر ذات يوم:

«لم يترك السيل غير الحبل والوئد

من ذلك الشعب أو من ذلك البلده».

انهم أبناء القرى التي كان يدامها الفريسان، وأبناء المخيمات التي كان يحاصرها الدرك، انهم أبناء البوابات المغلقة في وجوههم والتهم الموجهة إليهم؛ أولئك المقاتلون هم أبناء شعب قرر في حالة قسوى أن يجتاز بشكل خارق كل دوائر النسيان.

ولقد كتب الآلاف من جنسيات مختلفة، وفي سنوات عدة، كتبوا عن أسباب كثيرة أدت لانطلاقة فتح. وانطلاقة الثورة أسباب اقتصادية وأيديولوجية وسياسية وتبدلات في العلاقات المحلية والدولية... وربما تكون كل تلك الأسباب صحيحة، لكن ثورتنا العظيمة التي تشبه المستحيل انطلقت في الأساس من شيء واحد، وهو تلك المعاناة التي لا يمكن حصرها لشعب بلا وطن.

وتلك الملايين من التفاصيل لهذه المعاناة يجب أن نجتازها دائماً إلى الامام، لكننا لن نسمح، أبداً، لتلك الأيام بأن تغادر الذاكرة.

٤ - التحدي... والاستجابة

في سنة ١٩٥٥، بلغ تحدي الحياة ضد الشعب الفلسطيني ذروته القسوى في قطاع غزة، فالحصار الأمني والمعيشي يكاو يخنق الناس جميعاً، والأوبئة والأمراض والأفات كانت، خلال السنوات الماضية، تفتك بالآلاف. وفوق ذلك كله، فقد كان الاعداء الصهاينة يحاولون جعل قطاع غزة ميدان رماية لجنودهم بالذخيرة الحية ضد أهداف آدمية حية.. فلقد نظموا سلسلة من المذابح ضد أهالي القطاع ابتداء من غارة الطيران الكبيرة في سوق الثلاثاء في دير البلح، وعند محطة غزة، وفي مدرسة خان يونس، وفي مستشفى الأمراض